

حصاد الغربة رسائل إلى الشباب المسلم في المهجر

تأليف

د. محمد بن سعود البشر

تقديم

د. ناصر بن سليمان العمر

مصدر هذه المادة :







تقديم

في ذات مساء من أيام ذي القعدة عام ١٤١٤هـ أكرمني أخي د/ محمد بن سعود البشر بإهداء رسالة صغيرة في حجمها كبيرة في مضمونها، وطلب مني أن أقدم لها حيث إنه على وشك إصدارها، واعتذرت منه بأن المشاغل قد تحول دون قراءتها قريبًا وبخاصة أنني كنت على وشك سفر.

وفي تلك الليلة بدأت في قراءة مقدمة هذه الرسالة بنيَّة الاطلاع عليها ومعرفة مضمونها وتحديد برنامج لقراءتها، وشرعت في القراءة وما علمت إلا وأنا أودع الصفحة الأخيرة في ساعة متأخرة من الليل.

لقد عشت مع أخي في غربته، وتنقلت معه في مشاعره، إن هذه الرسالة فيها من المتعة والعبرة لما حوته من جمال الأسلوب وروعة البيان ونفاسة المضمون.

إن تلك الرسائل المتبادلة تستحق أن تُصنَّف تحت "أدب الغربة": أو: "وصايا للمغتربين" ذلك أن المؤلف استطاع أن يتغلب على مشقة الغربة وبُعد الأهل والأحبة بهذه الرسائل التي أنارت له الطريق، وساعدته على تجاوز المحن والحذر من الفتن، وخففت من معاناته وشجواه.

إنني أنصح كل مغترب أن يقرأ هذه الرسالة، وأن يستخلص من بين ثناياها ما يكون له هاديًا ومعينًا، ذلك أنها ضمت بين دفتيها تجربة ثرية تستحق الشكر والعرفان.

كما أنني لمست ما للرسائل المتبادلة مع الإخوة المغتربين من أثر قد لا ندركه ونحن نخط لهم رسائلنا، ونوجه لهم نصائحنا، بينما هم يعتبرون تلك الرسائل زادًا في طريق موحش مظلم يحتاجون فيه إلى بصيص النور وتقوية إيمان.

شكرًا لأخي الدكتور محمد على رسالته، وهنيئًا لنا بأمثاله داعيًا بلسانه وبقلمه في وقت نحتاج إلى كل جهد مبارك، وعمل مشكور، ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾.

أسأل الله أن يتقبل منه هذا العمل وأن يبارك فيه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه

ناصر بن سليمان العمر

الرياض ١٤١٤/١١/٢٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه. والصلاة والسلام على من قال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**».. وبعد:

فالغربة نارٌ لا يدافعها إلا رجل ذو تقوى.. يخشى الله ويرعاه.. وهذه الرسائل خلاصة أوراق عفى عليها الزمن.. لكن كلماتها لا تزال تنبض بالحياة.. كانت لي في غربتي أيام الدراسة زادًا في المسير.. وتسرية للهمِّ.. وتثبيتًا على الطريق.. وصلتني من إخوة أخلاء.. أو أرسلتها إلى رفاق أوفياء.. استخلصتها في هذه الوريقات، لأقدمها إلى أولئك الذين بدءوا مسيرة الغربة.. أو ما فتئوا يكابدون عناءها.. لعلها تكون عونًا لهم فيما تبقى من أيامهم.. حتى لا يجمعوا بين غربتين.. غربة الدين.. وغربة الوطن.

وحسب هذه الكلمات أن تكون من باب:

حديث الروح للأرواح يسري
وتدركه القلوب بلا عناء

عسى الله أن ينفعهم بها.. ويكتب الأجر والثواب لمن سطر بقلمه كلماتها.

* * * * *

(١)
منازل الغربة

أخي المغترب:

وأنت تضع قدمك في أول الطريق.. وعلامات الاستفهام تتزاحم في مخيلتك.. ومشاعر الخوف من الغربة تهز فؤادك.. تذكَّر أن الغربة منازل.. والناس فيها درجات.. أقطف لك من كلام الصالحين باقة. يكون زادًا في المسير.. وعونًا في الطريق.. تفريجًا للهم.. وتسلية للفؤاد.

اعلم ـــ يا رعاك الله ـــ أن الغربة منازل [١]:

فالأولى: غربة أهل الله.. وأهل سنة رسول الله ﷺ بين هذا الخلق.. وهي الغربة التي مدحها ﷺ.. وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه «**بدأ غريبًا**».. وأنه «**سيعود غريبًا**».. وأن: «**أهله سيصيرون غرباء**».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان.. وفي وقت دون وقت.. وبين قوم دون قوم.. ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقًّا.. فإنهم لم يأووا إلى غير الله.. ولم ينسبوا إلى غير رسوله ﷺ.

وهذه الغربة لا وحشة على صاحبها.. بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس.. وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا.. فوليُّه الله.. ورسوله.. والذين آمنوا.. وإن عاداه الناس وجفوه.

(١) ابن القيم، "مدارج السالكين"، ٣/٢٠٣، وما بعدها.

"خرج موسى ــ عليه السلام ــ هاربًا من قوم فرعون.. ولما انتهى إلى مدين وهو وحيد.. غريب.. جائع.. خائف.. قال: يــا رب.. وحيدٌ، مريضٌ، غريب؟

فقيل له:

يا موسى: الوحيد من ليس له مثلي أنيس.. والمريض من ليس له مثلي طبيب.. والغريب من ليس بيني وبينه معاملة.

وقال الحسن:

المؤمن في الدنيا كالغريب.. لا يجزع من ذلها.. ولا ينــافس في عزها.. للناس حالٌ وله حال.. الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

والثانية: غربة مذمومة.. وهي غربة أهــل الباطــل.. وأهــل الفجور بين أهل الحق.. فهي غربة بين حزب الله المفلحــين.. وإن كثر أهلها.. فهم غرباء.. على كثرة أصحابهم، وأشياعهم.. يعرفون في أهل الأرض.. ويخفون على أهل السماء.

وأما الأخيرة: فهي الغربة عن الوطن.. والناس في هذه الــدنيا غرباء.. ليست لهم بدار مقام.. ولا هي الدار التي خُلِقوا لها..

«كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل».

(٢)
طبقات المغتربين

أخي المغترب:

اعلم ـــ يا رعاك الله ـــ وأنت تبدأ رحلة الغربة.. **أنَّ النـــاس فيها على ثلاثة:**

فمنهم مؤمن صادق: لم تزده الغربة إلا إيمانًا وتثبيتًا.. ويقينًـــا وتصديقًا.. قد أشرق وجهه بنور الطاعة.. فحمل مشعل الهدايـــة ليبدد به ظلمات الكفر والجهالة.. لم تَضرُّه الغربة.. و لم تؤثِّر فيـــه التربة.. لأنه يمشي على الأرض وقلبه معلق بالسماء.

ومنهم من هاجر: لا يعرف من الإسلام إلا اسمـــه.. ولا مـــن الإيمان إلا رسمه.. مسلمٌ بالهوية.. وتابع بالفطرة.. تقلب في المعصية في وطنه.. وهاجر بها معه في غربته.. فاطمأنَّ إليهـــا.. واســـتكان لطعمها.. وخبر حال الناس فيها..

حتى إذا ملَّ التقلُّب في لذائذها.. وانتهى إلى نهايتها.. انتبه إلى حاله.. وأفاق من غفلته.. فتحركت عـــروق الحيـــاة في فـــؤاده.. واستجاب لداعي الفطرة.. وتعلَّق بحبل النجاة.. والتحق بقوافـــل التائبين.. فقاده إلى مرافئ السعادة.. وأسفر وجهه بنور الطاعـــة.. وأنس في وحشته وغربته بقربه من خالقه.. فكساه ذلـــك ســـعادةً وحبورًا.. ثم عاد إلى أهله.. وإلى دياره.. "حديثًا طيبًا لمن وعى".

ومنهم من اغترب مؤمنًا: وهاجر صادقًا.. فما لبث أن خلط

عملًا صالحًا بآخر سيئًا.. وتعلق بقرين بئيس.. لجَّ وإياه في ظلمة المعصية.. فقرب منها.. وركن إليها.. أو خطف بصره بريق للحضارة زائف.. فخرم عقله.. وأسر لبه.. حتى إذا تقلب في الدنيَّة سنين عددًا.. تحركت بواعث التأنيب في ضميره.. فمنهم تائب ومستغفر.. ومنهم مُصِرٌّ ومستكبر.

فتأمل ــ يا رعاك الله ــ كيف انتهى كلٌّ إلى نهايته.. وأسأل مُقلِّب القلوب هدايته:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾..

فانظر من أي هؤلاء أنت.. وتذكر أن كثيرًا من الناس من يعيش.. وقليلاً منهم من يدرك.

* * * * *

(٣)
كن حديثًا طيبًا

أخي المهاجر:

وإنَّمـــا المـــرء حـــديث بعـــده
فكـــن حـــديثًا طيبًـــا لمـــن وعـــى

كان لابد أن أبدأ بهذا البيت من الشعر.. لما يتميز به من صدق العبارة.. وصدق الدلالة.. وعمق الشعور.

«**وإنما المرء حديث بعده**».. يبقى ذكريات ماتعة.. أو ذكريات منغصة.. تهد الحيل.. وتهرم الشعور.. يبقى صفحة بيضاء نقية.. أو سوداء قاتمة.. تأتي بالدوار.. وتصيب بالغثيان.

«**فكن حديثًا طيبًا**».. كن حديثًا. ولكن أي حديث؟ حديثًا طيبًا.. طيبًا في القول.. طيبًا في الخلق.. طيبًا في السمت.. طيبًا في البدن.. طيبًا في القلب.. طيبًا في المعاملة.

«**لمن وعى**».. لأنه قد يكون لك أعداء.. فينكرون طيبتك.. ويحولون تقواك إلى عجز.. وكسل.. وتهاون.. ولأنه لابد للإنسان من أعداء.. فأول هؤلاء الأعداء نفسك.. ومن صان نفسه عزّ.. فاجعل الدين والعقل حكمًا عليها.. وبذلك تصون نفسك.. وتحفظ فعلك.. وتحرس مروءتك.

فتَّشت في القراطيس.. ونقبت في قواميس الكلم.. لعلي أصل إليك.. وأصل إلى فؤادك.. والناس إنما يرزقون الأفئدة النبيلة..

والمشاعر المرهفة.. عندما يكون أحدهما للآخر: قلبًا واحدًا.. ونبضًا مشتركًا.. يسري فيهم الهم جميعًا.. ولأنني لا أبحث في السراب.. ولا أحرث الوهم.. ولا أنقش على صفحة الماء. فإني أقول لك — وعسى أن أوفق —:

إن حملة الأقلام.. وشداة الحروف.. ورسل البيان يخاطبونك يا من اختار دروب العلم.. وتكبد عناء الغربة.. يخاطبونك وقد تسربلوا بوشاح المعرفة وائتزروا بالأدب.. ثم حملوا القلم.. وخاضوا بحور الكلمة ليقولوا لك: إن التسارع الحضاري.. عملًا.. وإنجازًا.. وإبداعًا.. يريد عقيدة.

وهل هناك خير في غير عقيدتنا؟

إنها الفعل والغاية.. الكنز والرمز معًا.. فاحرص على التمسك بها.

في هذه الحضارة.. ليس هناك مكان للكسل.. والخلود إلى الراحة، أو الاتكال والعبور السالب للعالم.. دون تغيير أو إعمار.

أنت — إذن — مطالب بأن تكون داعية.. داعية بالحق.. وداعية إلى الحق.. تحمل القرآن.. فهو نور في القلب.. ونور في البدن.. لأنه ليس من صفة الإنسان أن يمر سابحًا في العوالم.. بل ليس من صفة المسلم أن يعيش.. دون إحداث تغيير.. أو إحلال قيم جديدة.. تربط السماء بالأرض...

ولا تكن كميت الأحياء.. الذي لا يعرف معروفًا.. ولا يُنكر منكرًا..ولابد لك من إرادة فذَّة.. تشدُّ بين رؤية العقل.. وقوة

البيان.

ولا يغب عن بالك أن ثقافتنا تشهد بواكير تقديرها.. وهـي ارتسامات ماتعة.. وطلائع منجزاتها.. وهي نجوم زاهية.. ومواقـع عطائها.. وهي رايات مشرعة.. فكن من حرَّاسها الأمناء.

* * * * *

أخي المهاجر:

اعلم ــ يا رعاك الله ــ أن الشعاع والوهج لا يحطم زجـاج السيارة.. ولكنه يخرم عقول البشر.. ويغـير الأفكـار.. ويأسـر القلوب.. كما يأسر الفراش نور السراج.. وأسر العقـول أشـد وأنكى.. لأن أسر العقل هو أسر للفكر.. وتحقير للثقافة.. وتفتيت للشعور.

فانظر إلى المادة بعقلك.. لا بنظرك.. لأنها تصـغر بالعقـل.. وتكبر بالصبر. وانظر إلى الكون ببصيرة.. تنظر أوسع ممـا تـرى العين. إنك إن قصرت الرؤيا على العين فقط كبرت الدنيا بطلاسمها في عينيك.. وإن رأيتها ببصيرة ثاقبة.. خلتها صغيرة واحتقرتهـا.. وجعلت الروح أغلى من المادة وأثمن.

* * * * *

أخي المغترب:

ما أقربك إلينا.. عينًا ساجية.. ورنوة حالمة.. وابتسامة ناعمة.. وصمتًا وكلامًا.

لا نقول لك كما قال ذاك:

عصـــــبة مـــــن خلصـــــاء
هـــم علـــى الـــدهر مجـــني
نلتقـــــي يومًـــــا وعامًـــــا
لا تســـــل عنـــــهم وعـــــني
ففـــــلان قلـــــت عنـــــه
وفـــــــلان خـــــــال أني
وأنـــــا إمـــــا تغنـــــوا
رفرفـــــت روحـــــي تغـــــني
أو بكـــــوا، أترعـــــت كأســـــي
بـــــــــــالمرات ودني
أو بنـــــوا مجـــــدًا تطاولـــــت
علـــــى النـــــاس كـــــأني
لســـــت أدري منـــــهم شـــــيئًا
ولا يـــــــدرون مـــــــني
قـــد جعلـــت البعـــد في الشـــوق
أو علـــــــــم الـــــــــتمني

ولكنا نقول: لا تجعل البعد من الله ديدنك.. فكلما اقتربت في غربتك من الله زدت علمًا.. واجعل البعد عن محـــارم الله نهجـــك ومبتغاك.. وتذكر أن العين تزني وزناها النظر.. فـــاحفظ بصـــرك وعينك من النظر إلى محارم الله.. ومن أرسل نظـــرة فعـــل بيـــده

وقدمه.. أو يوشك.. وحاشاك هذا.

خوفي عليك أيها المهاجر.. هل تجيد فن التحليق في الأجواء الشائكة؟ وقلقي عليك أن تكون بمستوى آمالنا فيك.. وتبقى الإجابة معلقة بين الخوف والرجاء.. بين الأمل واليأس.. وبين الارتعاش والصمود.

* * * * *

أخي المهاجر:

سوف تذكرنا كثيرًا.. ولكن متى؟ إذا رجعت إلينا تقرأ التاريخ.. وتستلهم الذكريات.. وتتذكر يوم أن قلنا لك: إن الحضارة الغربية تسير نحو الهاوية..

اذكرنا عندما تسمع صوت الأذان.. يجوب الآفاق.. يشق الظلام.. في وقت ومكان. لا تسمع فيه إلا أصوات النواقيس.. وستذكرنا عندما تفرح بلقيا حبيب يخاطبك بلغة عربية.

أيها المهاجر:

حتى لا يكون الكلام سمجًا لا رائحة فيه.. ولا طعم له.. أقتطف من الكلام المصفى عبرة.. ومن كلام المصطفى ﷺ عظة.

خطب ــ ﷺ ــ فقال: «**أيها الناس.. إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم.. وإنَّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم.. إنَّ المؤمن بين مخافتين.. بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به.. وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه.. فليأخذ العبد من نفسه**

لنفسه.. ومن حياته لموته.. فوالله ما بعد الموت من مستعتب.. وما بعد الدنيا من دار.. إلا الجنة أو النار».

فلتطلب العلم رفعةً للإسلام.. وعزًا للمسلمين.. **وإلا فلا خير في علم يجمع بين غربتين:**

غربة الدين

وغربة الدنيا.

ولتصنع من صحراء الغربة رياضًا.. ومن غربة الدين جنانًا.. **وإلا تكن:**

كـــالعيس في البيـــداء يقتلـــها الظمـــأ

والمـــــاء فـــوق ظهورهـــا محمـــول

(٤)
احذر فلتات الشباب

أيها المهاجر:

أخشى أن يصيب الوجدان الرقيق الجفاف.. فتذبل الأشواق.. وتتصحر القلوب.. وتجف التحايا.. والغربة أشـــد وأنكـــى مـــن الجفاف:

إن قلبًـــا ينســـى الرفـــاق لقلـــبٌ
بـــوداد الرفـــاق غـــير زعـــيم

لكن أشواقنا لن تذبل نحوك.. وقلوبنا لن تتصـــحر تجاهـــك.. وتحايانا لن تنقطع عنك.. ما بقي شوق يعصف بنـــا.. وذكـــرى تختزنها الذاكرة تطربنا.. وبسمة رقيقة تلوح في نواظرها.. ووالله إن أحدنا ليتذكر فيحن.. ويشتاق فيئن.. ولن يحن أكثر من الإبل إلى مرابعها إلا الإنسان.. ولن يئن أكثر من المفجـــوع في حبيـــب إلى الغريب عن الأوطان..

ماذا نكتب؟

أوراق يصقلها العتب.. تتآكل كلما أغراها الابتسام.. حديث يتصاعد من أرض تبتسم بورود ورياحين.. وخزامى وعرار. الكلمة ذاتها ــ مهما تكن مخلصة ــ لن تفعل شيئًا.. قبل أن تتحـــول إلى حركة.. وأن تتقمص إنسانًا.. والناس هم الكلمات الحية التي تؤدي معانيها أبلغ أداء.

أيها المغترب:

احذر فلتات الشباب.. كلما أورثـك النبـذ.. وخـدعك السراب.. فإنه إن يعظم بعدها شأنك. يشتد على ذلك نـدمك.. ولن أوصيك بشيء أنت أهله.

وأنت في الغربة وحيدًا.. ومثلك لا يعيش وحيـدًا.. فأنـت صاحب رسالة.. وصاحب عقيدة.. وأنت من النخوة والشرف في سامقها ومرتقاها.. قد يكون ذلك تدخلًا في شئونك.. وقد يكون من باب: "ومن الحب ما قتل".. لكن التقـوى عمـاد الإنسـان وشرفه.. وأنى لمثلك أن تخدش صفحته.. أو تثلم مروءته.. والغربة نار لا يدافعها إلا رجل ذو تقوى.. وورع.. يخشى الله ويرعاه.

أيها المهاجر:

قبل أن تفعل شيئًا تردد فيه.. اسأل نفسك:

ما عاقبته؟

ما الأثر المترتب عليه؟

ما موقف الخلق منك؟

ما مردوده على نفسك؟

وقبل ذلك كله:

كيف تتوارى من خالقك؟

فإن أحسست في نفسك حسرة وندمًا.. فلا تفعل و «**الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**».

إن وجدت خيرًا فالزمه.. وإن لم تجد فاحمد الله على نعمة العقل.. فإنها منحة ربانية يهبها ـــ سبحانه ـــ لمن يشاء من عباده.

* * * * *

أخي المغترب:

سؤال محير أقض مضجعي.. وهز كياني: ما بال النسور بدأت تطمئن إلى أعشاش العصافير؟! النسور بكبريائها.. وقوتها.. بدأت تنحو منحًى يؤلم كل محب لها؟!

ورغم فجاعة التساؤل.. إلا أنه يتضاءل أمام تساؤل لا يقل عظمة عن سابقه:

كيف يرتكس في حمأة الرذيلة من قضى سني شبابه في معاقل الطهر والفضيلة؟!

ذات مساء قمت مفزوعًا من حلم أقض مضجعي. صاحبي يرتكس في حمأة الرذيلة؟! إنه حلم مزعج ومخيف.. لكنه مجرد حلم لا غير.. ولم يكن رؤيا صادقة.. استيقظت فزعًا.. فبصقت عن يساري. ودعوت.. ثم رجوت.. **ثم كتبت لأقول:**

إن الدنيا قد تسلب منا القيم التي تربينا عليها.. قيم كانت لا تغيب.. واليوم تكاد ألا تذكر.. ومبادئ لا تفارق.. وإذا بها اليوم مجهولة النسب.

ويح الإنسان عندما يتنكر.. قبيح بالمرء أن يعيش من سقط المتاع.. إنها معادلة مؤلمة ومحزنة.

(٥)
كثير من يعيش.. وقليل من يدرك

أخي المهاجر:

هزني إليك شوق قديم.. وانتفض هذا الشوق كعصفور بلله مطر.. في يوم شاتٍ نزل. قلبي يختزن ذكريات.. مثله مثل صندوق يضم أوراقًا قديمة.. بعضها مضحك، وبعضها مبكٍ.. وتعجب من شخص يبكي ويضحك في آنٍ واحد!!

ذكريات خالدة.. لا تموت ولا تتحول.. وأنت في ليل الغربة.. يهزك شوق فتحن.. ويطويك حزن فتئن.. لا وقت عندك لقراءة مثل هذا.

لكني أستميحك العذر لأركب بحر الكلمة.. مجدافي قلم.. وبحري لا شاطئ له.. لم يبق لي إلاها.. والكلمة غناء وسيف.. حياة وموت.. مأتم وفرح.. والكلم مثل الحياة.. والحياة أمل وألم.. حلم ويقظة.. سكون وحركة.. ضعف وقوة.. سراب وحقيقة.

الضعيف في صحراء كلها سراب كورقة يابسة.. في ليل بارد.. وظلام دامس.. تتدحرج بين أزقة الصخور.. والناس في هذه الحياة كالدنيا.. تارة يرضى بما فيها، وأخرى يلقى بها في صندوق القمامة.. وعاش الإنسان بين هذا وذاك.. وكثير من يعيش.. وقليل من يدرك.

رأيت ــ فما رأيت في المنام ــ رجلًا.. قابلته وسلمت عليه؛

لكن يدي صافحت الهواء.. نظرت إليه نظرة دهشة واستغراب.. ثم نظرت إليه أخرى.. فإذا يداه مقطوعتان.. نط في ذهني سؤال:

من أين يأكل الرجل؟

وكيف يأكل؟

وإذا بآخر يلقمه الأكل تلقيمًا.. **قلت في نفسي**: سبحان الله.. سبحان من سخَّر هذا لهذا.. ثم تذكرت أن كثيرًا من الناس يأكلون شهد النحل.. لكنهم ينسون أنهم قد يأكلون الحصرم.. تلك هي الحياة.

أخي المهاجر:

هذه رحلة في كون حي مأنوس.. عالم صديق ودود. كونك ذي روح.. تتلقى وتستجيب.. وتسأل نفسك عن أحوال هذه الأمة.. ما بال الناس يرتكسون في الحمأة الوبيئة؟ وكيف يعيشون في المستنقع الآسن؟ وفي الدرك الهابط؟ وفي الظلام البهيم؟ وعندهم ذلك المرتع الزاكي.. والمرتقى العالي.. والنور الوضيء.. ودستور الحياة: "القرآن الكريم"؟!

أخي:

وأنا بعيد عهد بمراسلتك.. بعد أن كَلَّ النظر.. وتعبت خيول الكلمة المسرجة.. وجف مداد القلم.. واصفرت الأوراق.. وذبلت المعاني.. وتاهت الأساليب في متاهة الحياة كما يتيه العيس في صحراء نجد.. كنت أتمنى أن أكتب لك كلامًا ترتج منه طربًا..

وترقص منه فرحًا.. غير أن أحوال الحياة.. وصوارف صرفتني عن جميل الكلم.. فمعذرة عن الإطناب.. وعن صفصفة الكلام دون معانٍ.

* * * * *

خرجت ذات مرة من المسجد الجامع.. ولما كانت من عادتنا نحن "دول العالم الثالث"! أن تجد الباعة متناثرين حول أروقة المسجد.. وجدت بينهم شيخًا عجوزًا.. كف بصره.. وانحنى ظهره.. ونحن في صيف نجد.. والشمس تلفحه.. وهواءٌ حارٌ يلفه.. قال له شاب بهي الطلعة.. جميل المحيّا: يا أبت: لو جلست في الظل ليقيك حرارة الشمس.. ويبعدك عن لفح هجير الصحراء.. لكان أولى.

بيد أن هذا الشيخ قال بلهجة غريبة على مسامعنا.. شاذة ممقوتة: "أعطني درهمًا وارمني في الشمس"!!

هكذا.. قوم يتسابقون إلى الدنيا كما تتسابق الخيول المسرجة في ميدان الفروسية.

ويح قومي.. لو لم تكن لنا أرض مسلوبة.. وشعب يسام العذاب.. وأمة تداس كرامتها.. لم يبق لنا إلا جمع المال؟!

ويح هذا الجيل الذي ترقبه الأمة.. وتنظر إليه شذرًا.. وترمقه مليا.. يقود دفة الحياة إلى شواطئ الأمان.. ومواطن السعادة.. ومواقع الرقي والتقدم!!

* * * * *

يتسارع الناس إلى الدينار والدرهم.. حتى غدت الدنيا أكبر همهم.. ومبلغ علمهم.. فمنهم من يشحذ في الشارع.. ومن يستعطي على عتبة الوزير.. ومنهم من يتسول على بلاط الأمير.. ولكل طريقة.. حذق فنونها.. وبخص طرائقها.. **وتذكرت قول القائل:**

ليس لي مال سوى كرمي
فبه أمني من العدم
قنعت نفسي بما رزقت
وتمطت في العلا هممي

وقول الآخر:

ومن ينفق الأيام في حفظ ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وقول بعضهم:

وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

* * * * *

(٦)
"يبلى الشباب ولا تبلى مشاعرنا"

شاخ زمان الوصل.. واستوطن السهد.. وتبدت مشاعر الحزن.. وبت أردد قول الشاعر:

كلف أن تحب من لا يحس
أنت تأسو جراحه وهو يقسو
خدعت بالهمس الندي فؤادي
والفؤاد العميد يسبيه همس
كم طوى في الضلوع يائس روح
قد يريح الجريح في الحب يأس

وجئت الرياض.. وغدرت.. وما غادرت.. وتناسيت الصحب الذين يكنون لك كل حب وتقدير.. تناسيت من يفرشون أهداب أعينهم لتمشي.. وتجاهلت من أحبوك. لا طمعًا في مال.. ولا منصب أو جاه.. قد غادروا حياتك وما كلفوك همسة شفاعة.. أو طالبوك بزلفى عند أحد.

* * * * *

وغبت يا قمر.. وسألت.. ثم سألت.. فما خطر ببالي ولا ند في فكري.. أن يكون بين الرجال والقمر تلازمًا وعهدًا.

وطرحت تساؤلات كثيرة.. وقلت: عجيب هذا القمر.. يغيب حتى تظن أنه لن يطلع.. وفجأة يظهر.. ويظهر معه حب

الخير والدعوة إليه..

وقد تعجب: كيف يدعو القمر إلى الخير؟!

وأقول: إن من سنن الصوم: صيام أيام البيض.. فهل هنـــاك أفضل من دعوة لا يشوبها رياء ولا سمعة؟ يظهر.. ويظهر معه صفاء السريرة.. ونقاء القلب.. وطيب المعشر.. وتلك تتجلى كلـــها في أيام الإبدار.

هذه بعض أحاديث القمر.. ولو سردت عليك أخباره.. لملأت لك كراسات وطروسا..ولأعيتك قراءتها.. واستجلاء أبعادها.

فيا أخي:

لو أن البشر تعلموا من كل جزء من هذا الكون عبرة وعظة.. لما بقي محزون أو جائع.. أو "مشرد به خطيئة".. لكن البشـــر في حياتهم.. أو قل: جلهم.. يلعبون مع بعضهم لعبة "الشطرنج" وهم لا يعلمون.

أخي:

ليست هذه الكلمات عتابًا.. ولا لومًا..

أخي:

لو سلخت جلدك كيما تنسى تاريخنا.. فلن تستطيع.. **ونقول لك ما قاله الشاعر:**

يبلـــى الشـــباب ولا تبلـــى مشـــاعرنا
والجســـم يخلقـــه في خطـــوه العمـــر

أخي:

مشاعرنا نحوك لن تبلى.. لأنها تأسست على التقوى.. وقامت على الخير.. وتجذرت في حبه.. وتحددت بمعالم: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾.

* * * * *

(٧)
حتى لا تكون الخلة حسرة

أخي المغترب:

الغربة توجب الخلطة.. والمرء فيها يبحث عن قرين.. يقاسمه شكواه.. ويبوح له بسره.. ويشاركه حزنه.. ويشاطره فرحه.. فاستأجر لقلبك القوي الأمين.. انتقِ الناصح.. الذي يقيل العثرة.. ويستر الزلة.. ويجبر الهفوة.. ويعين على الحق.. فإنك إن لم تفعل تكُن الصحبة حسرة وندامة.. وتكُن الخلة بغضًا وعداوة.. وتكُن العشرة بعدًا وفرقة.

اعلم ــ يا رعاك الله ــ أن صحبة السوء من أعظم مفسدات القلوب.. واربأ بنفسك أن تكون ممن يعض على يديه: ﴿**يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُول سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي...**﴾.

ثم اعلم أن الإنسان ليس ملكًا مبرأً.. أو نبيًا معصومًا، والشيطان يجري منك مجرى الدم.. والوقوع في الذنب سنة أجراها الله على خلقه.. ليمحص بها عباده.. وحتى يتوبوا إليه ويستغفروه.. ولو لم نذنب لجاء الله بقوم يذنبون.. فيستغفرونه فيغفر لهم.

لكن الإحساس بالخطيئة.. والشعور بالذنب.. والندم على العثرة.. والحسرة على الزلة.. والعزم على مفارقة السيئة.. هي أول مراتب الهداية.. وهي مفتاح محاسبة الذات.. وإيقاع العقوبة على

النفس الأمارة بالسوء.. وتأنيبها.. وتقريعها. ومعناها بداية لـــزوم عتبة العبادة..

ودوام تذكرك لعثرتك هو طارقٌ لقلبك.. يحرك فيه مشـــاعر الخوف.. ويوقظ فيه معاني الرجاء.. ويغرس فيه بـــذور الخشـــية.. فيكون بذلك معلقًا بين الخوف والرجاء.

* * * * *

(٨)
ما الوطن؟

أخي المهاجر:

قرأت مجلتكم.. من الغلاف إلى الغلاف.. كنت أظنها أحلامًا فقط.. عندما حدثتني عنها أول مرة.. و لم أتيقن أنها أحلام رجال.. والرجال لا يحلمون أوهامًا.. وإنما يبذرون حقائق.. ويزرعون آمالًا.. وهكذا الرجال القادرون.. أصحاب الهمة.. وأرباب المبدأ.. ورجال الغاية التي تقوى من أجلها الهمة.. ويتلاشى دونها القلب.. وتزول العراقيل.. وتندثر المناصب.. وتتحطم الكراسي الوثيرة.

أكبرت همتكم.. خلصت منها وأنا أكبر فيها سبر الأغوار.. والغوص وراء المعاني.. وبعد النظر.. وعمق التحليل.. وشمول البعد.. وسمو الهدف.. وسلامة الوسيلة.. وصحة الرؤية.. وصدق التصور.

شممت فيها رائحة الوطن.. ووافقتكم.. وما الوطن؟ قوم وأرض.. فكر وأحداث.. مبادئ ودولة.. حقوق واجبات.. قوم يتكلمون لغة.. يقطنون أرضًا.. يؤمنون بمبدأ.. وتجمعهم عقيدة.

ينتجون فكرًا.. وينشرون نورًا.. ويصنعون أحداثًا.. ويقيمون خلافة الله في أرضه.. هكذا نفهم الوطن.. والإسلام أينما كان هو الوطن.

إن مجلتكم ــ وإن كانت تصدر من أرض بعيدة.. غريبة

هناك.. غريبة في الحرف.. والهدف.. والمعنى.. إلا أنها مـــن هـــذه الأرض.. مهبط الوحي.. ومدرج الرسل.. ومنبت العربية.. وموقع الحضارة.. ومنزل الرسالة.. إنها منا ونحن منها..

فحقا إنها ترسم لنا خارطة.. تطبعها على قلوبنا.. وتنقشها في ذاكرتنا.. فشكرًا لكم على جهادكم.. وشكرًا لكم على صبركم.

(٩)

الطريق طويل.. والغاية واضحة

أخي المهاجر:

أخالك تقول: إن صاحب الغاية يدفعها من هنا.. ويردعها من هناك.. ويقومها حين تميل.. ولكنه لا يكسرها أو يحطمها.. وأنـــا أقول: إنه يصبر عليها صبر العارف.. البصير الواثق.. لتحقيق الغاية المرسومة.. والذي لا يتم في المرة الأولى.. يتم في المرة الثانيـــة.. أو المائة أو الألف.. فالزمن ممتد.. والغاية واضـــحة.. والطريـــق إلى الهدف الكبير طويل وشاق.

والمرء يطوف في زورق الحياة يرى العالم الكبير.. وقد غدا قرية صغيرة.. يعرف أحوالها.. وبعض آلامها.. ولكن العـــالم وإن بـــدا كذلك إلا أنه لابد من جهد مضن حتى تتحقق تلك النظرة المفعمة بالأمل.. والمغرقة في التفاؤل.. فقد تبدو النظرة صحيحة من حيث ظواهر الأشياء.. وطبيعة تفاعلها.. ولكن أسباب ذلـــك مختلفـــة.. ودواعي ذلك متنوعة.. وظروفها أيضًا متغيرة.. وســـجية أهلـــها كذلك.. والإنسان بفطرته لا يزال يبحث.. يبحث عن الذي يغذي روحه.. ويزيد في عقله.. ويجذبه إلى الطمأنينة الكاملة.. والراحـــة التامة.. ولن يتحقق ذلك إلا بدين يحمل الصدق.. ويحـــث علـــى الإيمان.. ويبعث عليه.. ولن يكون ذلك إلا في "الإسلام".

* * * * *

(١٠)
قبل الوداع

أخي المغترب:

تحية لك من كل سعفة نخل.. ومن كل صهوة جواد.. ومن كل شذى وردة.. ومن كل تغريدة طير.. حب يدفعه تقدير.. يسابقه إعزاز.. يحمله شوق.

أخي:

لم يعد محدثك ممن تذعن له صهوات الكلمة.. مثلما كان في السابق.. إنه الآن يكد الذهن ويشحذ الفكر.. حتى يكتب كلمتين.

أخي المهاجر:

لم تعد الأيام كما كانت.. مرابع الأنس اندثرت.. وأصدقاء الوفاء تفرقوا في أرض الله.. ما بين داعية للخير في بلاد الحضارة المادية.. وما بين معلم في أرخبيل أندونيسيا.. وما بين طالب علم في قلب الجاهلية! لهم في هذه المدينة بقايا أثر.. وخطوات سعد.. ودعوات حب.. وذكريات تلوح في الذاكرة.

انتشر الرفاق في المعمورة.. وبقيت أنا والدنيا مثل المدرسة.. تخرج الأجيال وحارسها هو هو لم يتغير، و لم يتبدل.. ولكن حارس المدرسة يتكيف مع الأجيال.. وصاحبك الذي اعتاد على نمط رتيب لا يتبدل.. أخال أنَّا لن نلتقي.. فإن شاء الله ذلك.. فاعلم أني أحبك في الله.. ولك من كل أرض فيها ساجد تحية.

أخي المهاجر:

لئن شط المزار وبعد.. فإن الرسائل نعم الشمائل.. قد تكون عوضًا عن اللقيا.. وتفريجًا للهم.. وتسرية للبيب.. نحن بخير إن سمعنا أخبارك.. نحن بخير إن تمسكت بعقيدتك.. نحن بخير إن لم تفرط في قيمك.. فأنت غائب شاهد.. غائب بالجسم.. شاهد بالقلب.. محلك حبة القلب.. لن تنزل عنه.. ولن ترحل.. فأنت مقيم ما بقيت على عقيدتك.. ويوم تتحول عنها نتحول.. لكن الأمل يبقى.. ووعد الله ينفذ.. وسيحمل النصر قوم.. يمشون على الأرض وقلوبهم معلقة بالسماء.

* * * * *

الفهرس